الحلقة 23

السلطان مراد الأول استطاع فتح مدينة أدرنة أعظم مدن أوروبا

إعداد: هشام المنشاوي

«البلقان».. وطلائع العثمانيين في معركة قوصوه

سيكون الحديث عن منطقة من مناطق العالم الإسلامي واجهت أعظم هجمة صليبية في العصر الحديث، حيث قضي على المسلمين بالقتل والأسر والتهجير، وحيث مات الآلاف بأيدي الصليبيين أو نتيجة الجوع والعطش والمرض.

إنها منطقة البوسنة والهرسك، نعود إليها عبر سنين مضت لنعرف كيف وصلها الإسلام وانتشر فيها، وكيف انتصر المسلمون على النصارى الصرب في ذلك الوقت، وضموهم إلى بلادهم.

في ذلك التاريخ كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها وازدهارها حينما اكتسحت أوروبا الشرقية، فتهاوت مدنها ودولها تحت ضربات الجيش العثماني المسلم، ووصلت طلائع هذا الجيش إلى مدينة فيينا (عاصمة النمسا حاليًا) لتحاصرها فترة من الزمن، ويتسابق ملوك أوروبا بإعلان الولاء والانقياد للسلاطين العثمانيين، في ذلك التاريخ كان هَمُّ هؤلاء السلاطين الجهاد في سبيل الله ونشر كلمة التوحيد في كل مكان.

ولنتوقف قليلاً في عهد السلطان مراد الأول بن السلطان أورخان الغازي، فقد كان من السلاطين العظام الذين جاهدوا في سبيل الله ففتحوا المناطق الواسعة من أوروبا.

فقد استلم السلطان مراد الأول قيادة الدولة العثمانية سنة 761 هجرية وحجمها ومساحتها خمسة وتسعين ألف كيلو متر مربع، ولم يكن للدولة العثمانية أي قواعد بأوروبا ماعدا ميناء "غاليبولى" ولم تكن أيه إمارة أناضولية، انضمت للدولة العثمانية سوى إمارة "قره سي"، لذلك كان على السلطان مراد الأول العمل على جهتين الأولى توحيد الأناضول الذي يعتبر ثغر الإسلام، والثانية أوروبا النصرانية حيث الدولة البيزنطية والهدف المنشود الذي قامت من أجله الدولة العثمانية هو فتح القسطنطينية.

ثم استولى السلطان مراد الأول على مدينة "أدرنة" البلقانية وذلك سنة 762هـ في ضربة خاطفة للدولة البيزنطية، وظلت عاصمة الدولة العثمانية حتى فتح القسطنطينية سنة 857 هجرية.

ثم ساق جيشه نحو البلقان فتبوَّءُوا مدنها وافتتحوا حصونها، وأبرم معاهدة مع ملك اليونان، بيد أن هذه المعاهدة لم تدم طويلاً، حيث نقضها اليونان، وهكذا استطاع السلطان مراد الأول أن يستولي على جزء كبير من أوروبا الشرقية.

وهنا اضطرب ملوك أوربا النصارى وارتعدت فرائصهم، وأدركوا عظيم الخطر الذي تشكله هذه الدولة المسلمة الفتية، فطلبوا من البابا "أوربانوس" الخامس أن يأمر جميع الدول النصرانية أن تتحد للوقوف في وجه المسلمين، وإخراجهم من أوروبا قبل أن يجتازوا حدود البلقان، وحينئذ لا يستطيع أحد الوقوف في وجههم فيكتسحوا أوروبا كلها.

المعركة

وهنا شكل التحالف الصليبي جيشًا واحداً لمواجهة الجيش العثماني بقيادة السلطان مراد الأول، وكان الصرب على رأس هذا التحالف، ومع الصرب كان البلغار والبولنديون والمجر والأرناؤوط (ألبانيا)، تحت قيادة الملك "لازار" ملك الصرب.

ولما كانت المعركة المرتقبة في "قوصوه"، ولم يكن العثمانيون بقيادة السلطان مراد وحدهم، بل اشترك معهم الأمير البلغاري "قسطنطين" أمير "كوستنديل" وكان قد خضع للإدارة العثمانية من قبل عام 773 هـ، ومعه بعض أمراء الصرب، كما التحق بحملة العثمانيين قوات مساعدة أرسلها المسلمون المستقلون في آسيا الصغرى (الأناضول) في ذلك الوقت والمجاورون للعثمانيين، وكان هؤلاء الأمراء المستقلون في الأصل منافسين للإدارة العثمانية، لكن عندما وجدوا العثمانيين يقاتلون جيشًا صليبيًا، نسوا خلافاتهم مع العثمانيين، ووقفوا بجانبهم في الحرب ضد الصليبيين.

أقوى الروايات التاريخية تقول أن الجيش الصليبي كان في مائة ألف محارب، والعثماني في ستين ألف محارب. ونشب القتال بين الجانبين ووثب المسلمون على النصارى والتحموا معهم في القتال التحامًا لم يعد يرى معه إلا جماجم طائرة وفرسان غائرة، ودوي سلاح يدك الجبال الشامخة، وبقيت الحرب بينهما سجالاً مدة من الزمن، دافع الصليبيون الصرب خلالها دفاعًا مستميتًا، وتناثرت الرؤوس، وأزهقت النفوس، وفي أثناء المعركة أنحاز صهر ملك صربيا بفرقته نحو المسلمين، ودارت الدائرة على الصربيين، وجرح ملكهم "لازار"، ثم وقع أسيرًا في يد المسلمين.

وانهزم جيش الصرب في هذه الموقعة، كما انهزم هذا التحالف الصليبي من أجل وقف المد الإسلامي العثماني في أوروبا، ونتج عن هذه الموقعة انتصار المسلمين العثمانيين، إلا أنها انتهت أيضًا باستشهاد السلطان مراد الأول، على يد جريح صربي يدعى "ميلوش كابيلوفيتش"، عقب المعركة، بعد أن طعنه بخنجر مسموم، وكانت الكلمات الأخيرة للسلطان مراد رحمه الله:

"لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله، إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، ولقد أوشكت حياتي علي النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. لا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة، وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله، فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء".

ثم دفن السلطان مراد الأول في نفس المكان الذي استشهد فيه، وبعد ذلك نقلت رفاته إلى مدينة بورصة، واستشهد في الحرب وعمره 63 سنة، وحكم حكمًا كله جهاد في سبيل الله مدة 29 سنة، عليه رحمة الله.

وتختلف الروايات على دقة تحديد اليوم الذي وقعت فيه معركة قوصوه ولكن تاريخها في أقوى الروايات هو: الجمعة الرابع من رمضان عام 791 هـ الموافق 27 أغسطس سنة 1389م.

النتائج

إن من أهم نتائج موقعة قوصوه انتهاء استقلال مملكة الصرب تمامًا طوال قوة الدولة العثمانية، وقد مهد السلطان مراد الأول وأحفاده بانتصاره في هذه المعركة الطريق لاكتمال الفتوحات الإسلامية في الأفلاق، والأرناؤوط، واليونان.

كما سجل التاريخ من ذلك الوقت وإلى يومنا هذا؛ أن الصرب لا يلتزمون بعهد ولا ميثاق، ولا يعرفون في تعاملهم مع المسلمين إلا لغة البطش والقوة وسفك الدماء .

واليوم وكما غدر الصرب وأعوانهم بقائد المسلمين في تلك المعركة، غدروا أيضًا بالمسلمين جميعًا في البوسنة والهرسك، وقتلوا واغتصبوا وأسروا الآلاف منهم، لا يردعهم خلق ولا دين، ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمةً، والعجب العجاب أن من ارتكبوا جرائم الإبادة بحق المسلمين ما يزالون طلقاء وأحرارًا!!.

فتح البوسنة والهرسك

بعدما استطاع السلطان العثماني مراد الأول فتح مدينة أدرنة التي كانت من أعظم مدن أوروبا النصرانية، واتّخذها عاصمة للبلاد اشتعلت الأوضاع في أوروبا، ففتح أدرنة بمثابة الضربة القاضية للقوة النصرانية وأصدر البابا اوربانوس قرارا بتكوين جيش قوي لمواجهة الزحف العثماني الذي اجتاح أوروبا. وتكوّن الجيش بقيادة ملك الصرب لازار لينانوفتش وتوجه السلطان مراد الأول بجيشه الذي بلغ تعداده قرابة ستين ألفا لمواجهة جيش الصرب والبوسنة والهرسك والبلغار والذين بلغ تعداد جيشهم مائة ألف، ووقعت بينهما معركة من أعظم المعارك في التاريخ، معركة سهل قوص أوه على مشارف البوسنة والهرسك.

وهجم الجيش العثماني هجوما عنيفا على جيش النصارى واستطاع العثمانيون أن يسطروا ملحمة من أعظم ملاحم التاريخ حيث سحقوا عدوهم وهزموه هزيمة نكراء ودخل العثمانيون البوسنة والهرسك فاتحين في رمضان 790 هجرية وبعد انتهاء المعركة سار السلطان مراد الأول بين صفوف القتلى فقام إليه أحد جنود الصرب الذين تظاهروا له بالولاء والطاعة فوثب إلى السلطان وطعنه فسقط السلطان رحمه الله شهيدا بعد أن فتح الله على يديه البوسنة والهرسك

القرم

شبه جزيرة القرم ذات الموقع الاستراتيجي الهام والتي تقع جنوب أوكرانيا وداخل النطاق الجغرافي لروسيا كان أول من فتحها التتار، فقد دخل الإسلام القرم على يد التتار في عهد القبيلة الذهبية وظل التتار يحكمون شبه جزيرة القرم حتى دب الضعف في دولتهم وتعرّضوا لهجمات الروس الذين بدأوا يسيطرون على أجزاء من القرم حتى استطاع العثمانيون فتحها للمرة الثانية على يد السلطان محمد الفاتح في رمضان 889 وكان فتح القرم بمثابة ضربة موجعة لكل أوروبا وفي مقدمتها روسيا، ولم يهدأ الصراع بين الروس والعثمانيين حول القرم حتى هذه اللحظة.

بلغراد

بلغراد عاصمة المجر، كانت بمثابة القاعدة التي تنطلق منها الجيوش النصرانية لمهاجمة العالم الإسلامي، بعد أن تولى السلطان سليمان القانوني حكم الدولة العثمانية أرسل وزيره إلى ملك المجر لويز الثاني يطلب منه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية فكان الرد السيء من لويز الثاني حيث قام بالقبض على الوزير العثماني وأمر بإعدامه، وعندما علم السلطان العثماني سليمان القانوني غضب غضب شديد وكوّن جيشا ضخما وقاد الجيش بنفسه واتّجه إلى بلغراد وضرب القانوني الحصار حول المدينة، وبعد أن تخلّت كل دول أوروبا عن ملك المجر خوفا من الدولة العثمانية أصبح لويز الثاني بمفرده وظلت المدينة محاصرة حتى فتحت أبوابها ودخلها القانوني منتصرا 26 رمضان 927 هجرية، وبعد أن كانت بلغراد من أهم مراكز النصرانية ومحاربة الإسلام أصبحت من أعظم مراكز الحضارة الإسلامية في أوروبا لقرون طويلة.

الحكم العثماني

اتسمت الفتوحات العثمانية للبوسنة والهرسك بظهور عهد جديد في تاريخ تلك الدولة وحدوث تغييرات جذرية في الوضع السياسي والمشهد الثقافي في المنطقة. مع أن العثمانيين أنهوا تلك المملكة وقضوا على الكثير من الأمراء، إلا أنهم سمحوا للبوسنة بالحفاظ على هويتها عن طريق إدراجها كمقاطعة لا تتجزأ من الإمبراطورية العثمانية مع البقاء على اسمها التاريخي وسلامة أراضيها — وهي حالة فريدة من بين دول البلقان التي خضعت لهم.

تمكن العثمانيون من إدخال عدد من التغييرات في الإدارة الاجتماعية والسياسية في سنجق (لاحقا سميت ولاية) البوسنة؛ من ضمنها نظام تملك الأراضي الجديدة، وإعادة تنظيم الوحدات الإدارية، وأدخلوا أيضا نظاما معقدا من التمايز الاجتماعي حسب الانتماء الطبقي والديني.

وكان تأثير القرون الأربع من حكم العثمانيين بالغ الأثر على تركيبة سكان البوسنة، والتي تغيرت مرات عدة نتيجة للفتوحات الجديدة للدولة العثمانية وحروبها المتكررة مع قوى أوروبية والهجرات والأوبئة. فالطائفة المسلمة ذات الأصول السلافية أضحت بالنهاية من أكبر الطوائف العرقية والدينية، وذلك نتيجة للارتفاع التدريجي في عدد الذين أسلموا.

وخلال أواخر القرن الخامس عشر أتت أعداد كبيرة من يهود سفارديون بعد طردهم من إسبانيا. كما شهدت الطوائف المسيحية البوسنية تغييرات كبيرة. فالبوسنيون الفرانسيسكان (السكان الكاثوليك بشكل عام) كانوا تحت حماية فرمان رسمي من الباب العالي. وطائفة الأرثوذكس في البوسنة – وكانت متوقعة في الهرسك ودرينا – فقد انتشروا في جميع أنحاء البلاد خلال تلك الحقبة وشهدوا بعض الازدهار حتى القرن التاسع عشر. وفي تلك الفترة اختفت الكنيسة البوسنية المنشقة تماما.

عندما نمت الدولة العثمانية وتوسعت داخل أوروبا الوسطى، خفف ذلك من الضغط على البوسنة كولاية حدودية، وشهدت نموا وازدهارا لفترات طويلة. وظهرت فيها مدن جديدة كسراييفو وموستار التي أضحت من كبريات المراكز التجارية والحضرية في المنطقة.

وقد شيد العديد من السلاطين والحكام المحليين الكثير من الأبنية المهمة من العمارة البوسنية داخل تلك المدن (مثل جسر ستاري موست ومسجد غازى خسرو بيگ). بالإضافة إلى أن العديد من البوسنيين لعبوا أدوارا مؤثرة في الثقافة العثمانية وتاريخها السياسي خلال تلك الحقبة. فالجنود البوسنيين شكلوا جزءا كبيرا في التشكيلات العسكرية العثمانية في معركتي موهاج وكربافا، وكان لهما فيها نصر عسكري مؤزر، في حين أن العديد منهم ارتقوا في المراتب العسكرية ونالوا مناصب عليا في الدولة العثمانية كقواد الأساطيل وأمراء جيوش ووزراء. والكثير منهم كان لهم تأثير على الثقافة العثمانية، كالصوفية والعلماء والشعراء بلغات تركية وعربية وفارسية.